دوافع القتال وعوامل النصر
فى غزوة بدر
فى ضوء سورة الأنفال

إعـــــــداد

أ.د / عبدالوهاب محمد عبدالله سليم

استاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر

٢٠١٧م

المقدمة :

إذا نظرنا إلى حال المؤمنين قبل غزوة بدر وما تعرضوا له من اضطهاد وتعذيب وقتل وتشريد وما تعرضت له دعوة الإسلام من مخاطر وشدائد وصد للناس عنها ، وما تعرض له صاحب الدعوة من إيذاء واستهزاء ومكائد ومؤامرات لعرفنا أنه لا مناص حينئذا من الجهاد ولا مفر من القتال ولابد من الحرب حتى تخمد الفتنة وتعلو كلمة الله ويتحقق التمكين للمؤمنين .

قال تعالى : "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّـهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّـهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّـهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّـهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّـهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّـهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ"[١] .

وقد رتب الله سبحانه وتعالى هذا اللقاء وقدر هذه الغزوة وجمع الفريقين في بدر ليظهر دينه وينصر عبده ويكرم حزبه ولو وُكِّل الأمر للناس لتضاربت الجهات واختلفت المواعيد .

قال تعالى : "إِذ أَنتُم بِالعُدوَةِ الدُّنيا وَهُم بِالعُدوَةِ القُصوى وَالرَّكبُ أَسفَلَ مِنكُم وَلَو تَواعَدتُم لَاختَلَفتُم فِي الميعادِ وَلَـكِن لِيَقضِيَ اللَّـهُ أَمرًا كانَ مَفعولًا لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيى مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّـهَ لَسَميعٌ عَليمٌ"[٢] .

---

(١) سورة الحج : ٣٩ – ٤١ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .

وقد تحدثت سورة الأنفال الكريمة عن دوافع القتال لغزوة بدر وعوامل النصر فيها فأردت أن أبين ذلك في هذا البحث [دوافع القتال وعوامل النصر في غزوة بدر في ضوء سورة الأنفال] راجيًا من الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا البحث قبسًا من نور يهدى الأمة إلى سابق عزها ومجدها ولنتعرف على أهم الدوافع والأسباب التي فرضت هذه الحرب فربما تكون شبيهة بواقعنا وما نحن فيه من ضعف وهوان وهضم للحقوق وقتل للعباد وتشريد في البلاد واستعلاء الباطل وأهله وضيم الحق وصحبه .

ولنتعرف على عوامل النصر في هذه الغزوة عسى الله أن يوفقنا إليها لتكون سببًا في إحياء قوتنا ورد كرامتنا وعودة مجدنا وإظهار ديننا على الدين كله حتى لا يكون غرضًا لأعدائه يسوقون إليه التهم ويلقون عليه الحمم وليعلموا أن ديننا جاء لصيانة الإنسان ونشر المحبة والسلام والوصول إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

وقد تناولت هذا البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة ، وذلك على النحو التالي :

أولاً / المقدمة : وفيها أهمية البحث ومحتوياته .

ثانيًا / التمهيد : وفيه بيان معنى الغزوة والمراد ببدر وتعريف بسورة الأنفال

ثالثًا / المبحث الأول : خروج الفريقين إلى بدر ، وفيه :-

١- خروج المؤمنين للعير وإخبارهم بقدوم النفير .

٢- خروج المشركين لقتال المؤمنين .

٣- ترتيب الله للقاء الفريقين لحكمة .

رابعًا / المبحث الثاني : دوافع القتال ، وتتمثل فيما يلي :-

١- صد المشركين الناس عن الحق .

٢- إخماد الفتنة وإظهار الدين .

٣- مكر الكافرين بالنبي صلى الله عليه وسلم واستهزاؤهم بالدين.

٤- بيان أن الحياة في الجهاد والهلكة في تركه .

خامسًا / المبحث الثالث :عوامل النصر وفيه مطلبان :-

المطلب الأول : التمسك بوصايا الله للمقاتلين ، وتتمثل فيما يلي :-

١- الثبات وذكر الله عند لقاء العدو .

٢- الطاعة وتجنب النزاع والتحلي بالصبر .

٣- تقوى الله عز وجل .

٤- عدم الخيانة .

٥- عدم الغرور .

المطلب الثاني : معونة الله للمؤمنين ، وتتمثل فيما يلي :-

١- نزول الملائكة .

٢- إلقاء النوم ونزول المطر .

٣- تثبيت المؤمنين وإرعاب الكافرين .

٤-تقليل العدد في أعين الفريقين .

سادسًا / الخاتمة ، وفيها :

١- التوصيات .

٢-الفهارس .

هذا وقد اجتهدت في هذا البحث فإن أصبت فمن الله عز وجل فله الحمد وله الشكر وإن كانت الأخرى فمن نفسى والبشر يصيب ويخطيء والكمال لله وحده والعصمة لأنبيائه والله أسأل أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا جميعًا . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجميع ، والحمد لله رب العالمين .

التمهيد

قبل أن نقدم على بيان دوافع القتال وعوامل النصر فى غزوة بدر لابد أولاً أن نبين معنى الغزوة والمراد ببدر وأن نتعرف على سورة الأنفال وذلك فيما يلي :-

أولاً / معنى الغزوة : غزا الشيء غزوًا أراده وطلبه . والغزو : القصد وغزا العدو غزوًا سار إلى قتاله فهو غاز والغزوة : هي المرة الواحدة من الغزو[١]

ثانيًا / المراد ببدر : هو واد يقع بين مكة والمدينة وكانت به غزوة بدر

وبدر اسم بئر حفرها رجل من غفار اسمه بدر . وقيل : هو بدر بن قريش بن يخلد الذي سميت قريش به[٢]

ثالثًا / التعريف بسورة الأنفال :-

سورة الأنفال هي السورة الثامنة في ترتيب المصحف عدد آياتها سبع وسبعون آية في المصحف الشامي وست وسبعون في المصحف البصري والحجازي . نزلت في المدينة وهذا قول كثير من الصحابة منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وفي رواية لابن عباس وروي عن سعيد بن جبير أنه سئل الحبر – أي ابن عباس – عنها فقال تلك سورة بدر .

---

(١) المعجم الوجيز ولسان العرب والمعجم الوسيط مادة غزا .
(٢) الروض الأنف للسهيلى جـ٣ ص٤٣ المعجم الوجيز ص٤٠ مادة بدر بتصرف

وقيل : هي مدينة إلا قوله سبحانه وتعالى [**وَإِذ يَمكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَروا...** الآية] فإنها نزلت بمكة على ما قاله مقاتل .

واستثنى آخرون قوله تعالى **[يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسبُكَ اللَّـهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمِنينَ]** ويؤيده ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت لما أسلم عمر رضي الله تعالى عنه[١]

قال الشيخ الجمل رحمه الله : والقول بأنها مدينة كلها هو الأصح وإن كانت الآيات المذكورة في شأن الواقعة التي وقعت بمكة إذ لا يلزم من كون الواقعة في مكة أن تكون الآيات التي في شأنها كذلك فالآيات المذكورة نزلت بالمدينة تذكيرًا لهم بما وقع في مكة . اهـ[٢]

المراد بالأنفال :-

الأنفال جمع نفل بفتح النون والفاء كفرس وأفراس والمراد بها الغنائم وسميت أنفالاً ، لأن من معاني النفل[٣] الزيادة فالتطوع نفل لأنه زيادة على الواجب وولد الولد نفل لأنه زيادة على الولد قال تعالى **[وَوَهَبنا لَهُ إِسحاقَ وَيَعقوبَ نافِلَةً]**[٤] والغنمية نافلة لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٨٢ ، وروح المعاني ص٥ ص١٤٧

(٢) حاشية الجمل ج٢ـ ص ٢٢٤ .

(٣) من معاني النفل أيضًا : اليمين ، والنفل : الانتفاء ، والنَّفَل : نبت معروف ، القرطبي جـ٥ ص٢٧٩٧

(٤) سورة الأنبياء من الآية ٧٢

محرمًا على غيرها قال صلى الله عليه وسلم فضلت على الأنبياء بست وفيها [وأحلت لي الغنائم] [١]

وقد تحدثت سورة الأنفال عن أحداث غزوة بدر بداية من خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لملاقاة العير وهي القافلة التي يقودها أبو سفيان بن حرب أثناء رجوعه من الشام إلى مكة راجين من الله تعالى أن يجعلها غنيمة لهم تعوضهم عما تركوه في مكة ، ثم يقدر الله عز وجل لحكمة نجاة القافلة ليحل محلها جيش جرار من قريش يقوده أبو جهل جاءوا بحدهم وحديدهم وخيلهم وخيلائهم وفوجيء النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر فخفق قلب بعض أصحابه وارتعدت بوادرهم وتشوفوا العير وكرهوا النفير حتى أنزل الله سكينته عليهم فتسلل النوم إلى أعينهم فاطمئنت قلوبهم وأنزل المطر عليهم فتطهرت أبدانهم وثبتت الأرض تحت أقدامهم فانتفض الخوف عنهم وظهرت الحدة في أصواتهم وأبدوا للنبي صلى الله عليه وسلم استعدادهم للمضي خلفه حتى لو استعرض بهم البحر أو ساروا معه إلى برك الغماد .

ولو استعرضنا هذه السورة المباركة لوجدناها تحدثت عن خروج النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين إلى بدر وترتيب الله عز وجل لهذا اللقاء لإظهار دينه وإعلاء كلمته ولهذا أردت أن أفرد لذلك مبحثًا قبل الحديث

---

(١) انظر تفسير القرطبي ، حـ٥ ، صـ٢٧٩٧ ، وحاشية الجمل ، حـ٢ ، صـ٢٢٥ ، ومفاتيح الغيب ، حـ١٥ ، صـ٩٤ ، والحديث أخرجه البخارى كتاب التيمم باب قول النبى وجعلت لى الارض مسجداً وطهوراً رقم ٤٢٧ .

عن دوافع القتال وعوامل النصر لأبرز بعض أحداث الغزوة المباركة من خلال آيات السورة الكريمة وهذا ما سنبينه إن شاء الله تعالى في المبحث الآتي :-

المبحث الأول / خروج الفريقين إلى بدر :-

ويتمثل فيما يلي :-

(١) خروج المؤمنين للعير وإخبارهم بقدوم النفير وكراهتهم لذلك قال تعالى **[كَما أَخرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيتِكَ بِالحَقّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤمِنِينَ لَكارِهونَ ﴿٥﴾يُجادِلونَكَ فِي الحَقّ بَعدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقونَ إِلَى المَوتِ وَهُم يَنظُرونَ]**[١]

أورد الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره أن أبا أيوب الأنصاري – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة: إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمنيها ؟ فقلنا : نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يومًا أو يومين قال لنا : ما ترون في قتال القوم إنهم قد أخبروا بخروجكم ؟ فقلنا لا والله مالنا طاقة بقتال العدو ولكنا أردنا العير ثم قال : ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك . فقال المقداد بن عمرو إذا لا نقول لك يارسول الله كما قال قوم موسى لموسى **[فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ]**[٢] قال فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد لكان أحب إلينا من أن يكون

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٥ ــ ٨

(٢) سورة المائدة من آيه ٢٤.

لنا مال عظيم . قال فأنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخرجك ربك من من بيتك بالحق وإن فريقان من المؤمنين لكارهون . ا.هـ[١]

والكراهية هنا لم تكن كراهية تأب على أمر الله ورسوله ولكن كراهية الطبيعة البشرية ، والميل إلى حظ النفس الإنسانية كما قال الله [كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ][٢]

قال الشيخ الألوسي – رحمة الله – كراهية الخروج إما لعدم الاستعداد للقتال أو للميل إلى الغنيمة أو للنفرة الطبيعية عنه وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة – رضى الله تعالى عنهم . اهـ. [٣]

وقال الشيخ الشعراوي – رحمه الله – هل ذِكْرُ مسألة كراهيتهم للخروج إلى الحرب هى طعن فيهم ؟ لا . فهذا القول له حيثية بشرية ، لأن الذي يريد أن يخوض معركة لابد أن يغلب عليه الظن بأنه سوف ينتصر (وإلا سينظر إلى أن عملية الخروج إلى القتال فيها مجازفة) ، وكان المسلمون في ذلك الوقت قليلي العدد وليس معهم عدة بل لم يكن لديهم من مراكب إلا فرسان ، وكان خروجهم من أجل البضائع والعير لا لملاقاة جيش كبير ، وهكذا لم تكن الكراهية لهذه المسألة نابعة من التأبي على أوامر الله تعالى أو مطالب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٨٧
(٢) سورة البقرة من الآية ٢١٦
(٣) روح المعاني جـ٥ صـ١٥٩ بتصرف

الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنهم نظروا إلى المسألة كلها بالمقاييس البشرية فلم يجدوا فيها التوازن المحتمل ا هـ .[١]

وقوله تعالى **[يُجادِلونَكَ فِي الحَقّ بَعدَ ما تَبَيَّنَ]** يصور حالة المعارضة وشدة الحوار بين النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في مسألة قتال المشركين الذين يفوقونهم عَددًا وعُددًا وهذا النوع من الحوار لا حرج فيه ولا إنكار عليه فهو من باب المشاورة في الأمر ، ولكن الذي أنكره الله عليهم هو جدالهم في الحق الواضح الجلي الذي أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم به ، وهو أنهم منصورون وأن الله قد وعده إحدى الطائفتين إما العيرأو النفير ، والعير قد هربت ولم يبق إلا النفير والنصر عليه ، وهذا هو الحق الذي تبين وما كان يحق لهم أن يتشككوا لحظة في وعد نبيهم صلى الله عليه وسلم وهو رسولهم الذي آمنوا به وصدقوه فيما هو أكبر من ذلك .

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – قوله تعالى **[يُجادِلونَكَ فِي الحَقّ بَعدَ ما تَبَيَّنَ]** مجادلتهم : قولهم لما ندبهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أهبة شق ذلك عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة . ومعنى **[فِي الحَقّ]** أي في القتال . **[بَعدَ ما تَبَيَّنَ]** لهم أنك لا تأمر بشئ إلا بإذن الله . وقيل بعدما تبين لهم أن الله وعدهم إما الظفر بالعير أو بأهل مكة وإذا فات العير فلابد من أهل مكة والظفر بهم . ا هـ[٢]

---

(١) تفسير الشعراوي جـ٨ صـ٤٥٨١

(٢) تفسير القرطبي جـ٥ صـ٢٨٠٥

وقوله تعالى **[كَأَنَّما يُساقونَ إِلَى المَوتِ وَهُم يَنظُرونَ]** يبين حالة الهلع والفزع التي أصابت هذه الطائفة من المؤمنين حينما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم لملاقاة هذا الجيش الجرار بعدده وعتاده وهم مجردون من ذلك ، فعددهم قليل وعتادهم ضئيل والأرض سبخة من تحتهم ولا خيل تحملهم وصدورهم عارية وظهورهم مكشوفة ودفعهم إلى المعركة بهذه الحالة في مقياس البشر دفع إلى مواطن حتفهم .

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – إنه تعالى شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم بحال من يجر إلى القتل ويساق إلى الموت وهو شاهد الأسباب ناظر إلى موجباته وبالجملة .فقوله **[وَهُم يَنظُرونَ]** كناية عن الجزم والقطع . اهـ [١]

وهكذا تصور لنا السورة الكريمة حال المؤمنين قبل إقدامهم على قتال المشركين يوم بدر عدد قليل غير متأهب للقتال فوجئ بجيش جرار كل غرضه القضاء عليهم والخلاص من دعوتهم . فاذا ما اقتحموا هذه المعركة كأنهم يساقون الى مصارعهم ويحفرون قبورهم بأيديهم فيلقون بأنفسهم الى التهلكة .

(٢)خروج المشركين لقتال المؤمنين

وقد صورت السورة الكريمة حالة الكبر والغرور التي خرج عليها المشركون من مكة وذلك في قوله تعالى : **[وَلا تَكونوا كَالَّذينَ خَرَجوا مِن دِيارِهِم بَطَرًا وَرِئاءَ النّاسِ وَيَصُدّونَ عَن سَبيلِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ بِما يَعمَلونَ**

(١) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ١٠٥

مُحيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعمالَهُم وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النّاسِ وَإِنّي جارٌ لَكُم فَلَمّا تَراءَتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيهِ وَقالَ إِنّي بَريءٌ مِنكُم إِنّي أَرى ما لا تَرَونَ إِنّي أَخافُ اللَّـهَ وَاللَّـهُ شَديدُ العِقابِ][١]

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – قوله تعالى : [**وَلا تَكونوا كَالَّذينَ خَرَجوا مِن دِيارِهِم** .....] يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف فلما وردوا الجُحفة بعث خفاف الكناني – وكان صديقًا لأبي جهل – بهدايا إليه مع ابن له وقال إن شئت أمددتك بالرجال وإن شئت أمددتك بنفسي مع من خف من قومي . فقال أبو جهل : إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله من طاقة ، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة ، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا القيان فإن بدرًا موسم من مواسم العرب وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد . اهـ[٢]

وقد صور النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحالة التي خرج عليها المشروكون فقال في دعائه [اللهم إن قريشًا قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم أحنهم الغداة] [٣]

والآية الكريمة قد وصفت خروج المشركين بثلاث صفات الأولى البطر وهو كما يقول الإمام القرطبي – التقوية بنعم الله عز وجل وما ألبسه من

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ٤٧ ، ٤٨

(٢) تفسير القرطبي جـ٥ صـ٢٨٦٤

(٣) الحديث أخرجه مسلم ٥٨/٣ وأحنهم أي أهلكهم ، وفي تاريخ الطبري رقم ٥٤١ .

العافية على المعاصي[١] والثانية الرياء : لأنهم يريدون السمعة بين الناس وأن يعرف العرب أنهم خرجوا إلى المدينة وقاتلوا محمدًا وصحبه لتكون لهم سمعة وهيبة بين الناس في الجزيرة العربية .والثالثة الصد عن سبيل الله لأن الناس حين يرون الكفار المعاندين لمنهج الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قد صارت لهم اليد العليا ويرون المسلمين وهم مختفون خائفون من مواجهة الكفار فسوف يغري ذلك الناس بإتباع منهج الكفر. [٢]

وقوله تعالى **[وَإِذ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعمالَهُم وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النّاسِ وَإِنّي جارٌ لَكُم]** يبين إغراء الشيطان لهم ووسوسته إليهم بتضخيم قوتهم وأنه لا يغلبهم أحد من الناس وإن أصابهم سوء فهو مجيرهم .

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – في كيفية هذا التزيين وجهان .

الأول : أن الشيطان زين بوسوسته من غير أن يتحول في صورة الإنسان .

والثاني : أنه ظهر في صورة الإنسان . قالوا : إن المشركين حين أرادوا المسير إلى بدر خافوا من بني بكر بن كنانة لأنهم كانوا قتلوا منهم واحدًا فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم فتصور لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو من بني بكر بن كنانة وكان من أشرافهم في جند من الشياطين ومعه راية وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم مجيركم من بني كنانة.اهـ[٣]

---

(١) تفسير القرطبي جـ٥ صـ٢٨٦٢

(٢) تفسير الشعراوي جـ٨ صـ٤٧٣١

(٣) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ١٤٣ ،١٤٤ باختصار

وقد يكون تزيين الشيطان لأعمالهم بأن وسوس إليهم بترخيصها ، وأنهم على صواب في قتالهم لمحمد فهو الباغي في نظرهم ، المتظاهر على دينهم بدليل أنهم قبل خرجوهم تعلقوا بأستار الكعبة وطلبوا من الله النصر .

ذكر الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – عن السدي قال : إن المشركين لما أرادوا الخروج إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين فأنزل الله تعالى [**إِن تَستَفتِحوا فَقَد جاءَكُمُ الفَتحُ**][1] والمعنى إن تستفتحوا أي تستنصروا لأهدى الفئتين وأكرم الحزبيين فقد جاءكم النصر . ا هـ . [2]

وقد تحقق طلبهم ونصر الله أهدى الفئتين وأكرم الحزبين حزب محمد وأصحابه ، وخاب سعي الشيطان واندحر كيده لما رأى نزول الملائكة فنكص على عقبيه ورجع خائفًا مزعورًا وتنصل ممن وسوس إليهم " وقال إني برئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب " . وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : "ما رأى إبليس يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى من يوم بدر" قالوا يا رسول الله وما يوم بدر ؟ قال : "أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة"[3] وفي هذا اليوم هزم الله المشركين وكسر شوكتهم وأرغم أنوفهم وتحول بطرهم وعزهم

---

(1) سورة الأنفال من الآية ١٩

(2) مفاتيح الغيب جـ٥ صـ١١٧

(3) الحديث رواه مالك مرسلا رقم ٢٦٢٥ .

إلى ذل ومهانة ولم يشربوا خمرا في بدر كما وعدوا بل شربوا كئوس المنايا وناحت عليهم النساء بدل الغناء .

(٣)ترتيب الله للقاء الفريقين لحكمة

قال تعالى [**وَإِذ يَعِدُكُمُ اللَّـــهُ إِحدَى الطّائِفَتَينِ أَنَّها لَكُم وَتَوَدّونَ أَنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونُ لَكُم وَيُريدُ اللَّـــهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقطَعَ دابِرَ الكافِرينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ الباطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمونَ**][1]

وقال سبحانه [**إِذ أَنتُم بِالعُدوَةِ الدُّنيا وَهُم بِالعُدوَةِ القُصوى وَالرَّكبُ أَسفَلَ مِنكُم وَلَو تَواعَدتُم لَاختَلَفتُم فِي الميعادِ وَلـــكِن لِيَقضِيَ اللَّـــهُ أَمرًا كانَ مَفعولًا لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيى مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّـــهَ لَسَميعٌ عَليمٌ**][2]

من خلال هذه الآيات ومن سياق السورة الكريمة نرى تدبير الله لهذه الغزوة وترتيبه لهذا اللقاء بداية من إخراج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المدينة لاعتراض القافلة كما قال ربنا **[كَما أَخرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيتِكَ بِالحَقِّ]** وبعلمه السابق بنعرة قريش وكبرها وأنها لا تقبل الإهانة وستخرج للدفع عن عيرها ، وهو سبحانه قد حدد الزمان والمكان ولو خطط الفريقان لهذا اللقاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً كما قال سبحانه [**إِذ أَنتُم بِالعُدوَةِ الدُّنيا وَهُم بِالعُدوَةِ القُصوى وَالرَّكبُ أَسفَلَ مِنكُم وَلَو تَواعَدتُم لَاختَلَفتُم فِي الميعادِ**] .

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ٧ ، ٨

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٢

قال صاحب الظلال – رحمه الله – إن المعركة شاخصة بمواقع الفريقين فيها وشاهدة بالتدبير الخفي من ورائها إن يد الله تكاد ترى وهى توقف هؤلاء هنا وهؤلاء هناك والقافلة من بعيد ، ولم يكن كل من الجيشين يعلم بموقع صاحبه . وإنما جمعهما الله هكذا على جانبي الربوة لأمر يريده حتى لو أن بينهما موعدًا للقاء ما اجتمعا بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية المكان والموعد . اهـ[1] .

ويظهر الحق سبحانه وتعالى الحكمة الجليلة من هذا اللقاء بين معسكر الكفر ومعسكر الإيمان في قوله تعالى **[وَتَوَدّونَ أَنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونُ لَكُم وَيُريدُ اللَّـهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقطَعَ دابِرَ الكافِرينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ الباطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمونَ]**

وقوله سبحانه **[وَلَو تَواعَدتُم لَاختَلَفتُم فِي الميعادِ وَلـكِن لِيَقضِيَ اللَّـهُ أَمرًا كانَ مَفعولًا لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيى مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّـهَ لَسَميعٌ عَليمٌ]**

فمراد الناس أخذ المال وترك الحرب ، والله أراد الحرب ليظهر الحق ويرفع راية الإسلام ، ويبطل الباطل ويقطع دابر الكافرين ولم يرض للمؤمنين هذه اللعاعة من المال يفرحوا بها زمنًا ثم تزول .

قال العلامة الألوسي – رحمه الله – وذات الشوكة هى النفير ورئيسهم أبو جهل وغيرها العير ورئيسهم أبو سفيان **[وَيُريدُ اللَّـهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ]** أي يظهر كونه حقًا **[بِكَلِماتِهِ]** الموحي بها في هذه القصة **[وَيَقطَعَ دابِرَ الكافِرينَ]**

([1]) في ظلال القرآن جـ٣ صـ١٥٢٤ ،١٥٢٥ باختصار

أي آخرهم والمراد يهلكهم جملة من أصلهم لأنه لا يفني الآخر إلا بعد فناء الأول .

والمعنى : أنتم تريدون سفاسف الأمور والله عز وجل يريد معاليها وما يرجع إلى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين وكأنه للإشارة إلى ذلك عبر أولاً بالوداد وثانيًا بالإرادة ، وقوله تعالى [**لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ الباطِلَ**] جملة مستأنفة سيقت لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع إرادتهم لغيرها ، واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها أي لهذه الحكمة الباهرة فعل ما فعل لا لشئ آخر ، وليس فيه مع ما تقدم تكرار إذ الأول لبيان تفاوت ما بين الإرادتين وهذا لبيان الحكمة الداعية لما ذكر . اهـ[١]

وقال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره لقوله تعالى [**لِيَقضِيَ اللَّـهُ أَمرًا كانَ مَفعولًا لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيى مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ**] إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل ليصير الأمر ظاهرًا والحجة قاطعة والبراهين ساطعة ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فحينئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من يستمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه [**وَيَحيى مَن حَيَّ**] أي يؤمن من آمن عن [**بَيِّنَةٍ**] أي حجة وبصيرة . اهـ[٢]

---

(١) روح المعاني جـ٥ صـ١٦١ باختصار
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣١٥

وعلاوة على ذلك فإن انتصار المسلمين في بدر سمع لهم في أرجاء الجزيرة وأصبحت لهم شوكة يهابها الناس ، ودخل في الإسلام كثير من أهل المدينة ومن حولها إما اقتناعًا وإما نفاقًا ولو رجعوا بالعير ربما تغير نظر الناس فيهم وقالوا جماعة من الناس غاروا على قافلة فنهبوها ولكن بإرادة الله رجعوا من بدر بنصر مؤزر ومغانم كثيرة .

المبحث الثاني / دوافع القتال :

ذكرت السورة الكريمة الكثير من الدوافع والأسباب التي تحفز المسلمين على قتال المشركين من ذلك ما يلي :

(١) صد المشركين الناس عن سبيل الله :

قال تعالى **[وَما لَهُم أَلّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّـهُ وَهُم يَصُدّونَ عَنِ المَسجِدِ الحَرامِ وَما كانوا أَولِياءَهُ إِن أَولِياؤُهُ إِلَّا المُتَّقونَ وَلـكِنَّ أَكثَرَهُم لا يَعلَمونَ ﴿٣٤﴾ وَما كانَ صَلاتُهُم عِندَ البَيتِ إِلّا مُكاءً وَتَصدِيَةً فَذوقُوا العَذابَ بِما كُنتُم تَكفُرونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذينَ كَفَروا يُنفِقونَ أَموالَهُم لِيَصُدّوا عَن سَبيلِ اللَّـهِ فَسَيُنفِقونَها ثُمَّ تَكونُ عَلَيهِم حَسرَةً ثُمَّ يُغلَبونَ وَالَّذينَ كَفَروا إِلى جَهَنَّمَ يُحشَرونَ]**[١]

ذكرنا سابقًا أن المشركين خرجوا من مكة لقتال المشركين وكان غرضهم الصد عن سبيل الله كما قال تعالى **[خَرَجوا مِن دِيارِهِم بَطَرًا وَرِئاءَ النّاسِ**

(١) سورة الآنفال الآيات ٣٤ ــ ٣٦

وَيَصُدّونَ عَن سَبيلِ اللَّـــهِ][1] وفي هذه الآيات يبين الحق سبحانه وتعالى أن هؤلاء الصادين عن سبيل الله مستحقون للعذاب وإذا كان سبق حكم الله ألا يعذب هذه الأمة بعذاب الاستئصال كما ذكر قبل هذه الآيات [﴿٣٢﴾ **وَما كانَ اللَّـــهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنتَ فيهِم وَما كانَ اللَّـــهُ مُعَذِّبَهُم وَهُم يَستَغفِرونَ**][2] فالمقصود بعذابهم في الآيات التي نحن بصددها هو القتال والعذاب بأيدي المؤمنين كما قال الله تعالى في آية أخرى [**قاتِلوهُم يُعَذِّبهُمُ اللَّـــهُ بِأَيديكُم وَيُخزِهِم وَيَنصُرُكُم عَلَيهِم وَيَشفِ صُدورَ قَومٍ مُؤمِنينَ**][3] وهذا ما حدث في بدر.

والآيات تبين أن المشركين قد صدوا الناس عن الدين الحق وعن المسجد الحرام بحجة أنهم أولياؤه وسدنته وورثة إبراهيم وحماة بيته وهم ليسوا كذلك لمخالفتهم له في العقيدة فهم عباد أوثان ، ومخالفتهم له في العبادة فصلاتهم عن البيت مكاء وتصدية أي تصفيقًا وصفيرًا ، والأدهى من ذلك أنهم صدوا عنه أولياءه الحقيقين وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم .

قال الإمام الألوسي – رحمه الله – وكيف لا يعذبون [**وَهُم يَصُدّونَ عَنِ المَسجِدِ الحَرامِ**] أي وحالهم الصد عن ذلك حقيقة كما فعلوا عام الحديبية ،

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٧
(٢) سورة الأنفال الآية ٣٣
(٣) سورة التوبة الآية ١٤

وحكمًا كما فعلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى ألجؤوهم للهجرة.ا هـ[١]

وقوله تعالى [**إِنَّ الَّذينَ كَفَروا يُنفِقونَ أَموالَهُم لِيَصُدّوا عَن سَبيلِ اللَّـهِ**] يبين أن هؤلاء المشركين لم تكن مخالفتهم عقدية بعبادتهم الأوثان أو بدنيه بصلاتهم عند البيت مكاء وتصدية فحسب ، بل كانت مخالفتهم مالية أيضًا برصد الأموال للصد عن سبيل الله .

والتعبير بالمضارع في قوله تعالى [**يُنفِقونَ**] الذي يدل على الحال وبالسين في [**فَسَيُنفِقونَها**] الذي يدل على الاستقبال يفيد أنهم مستمرون في رصد الأموال لمحاربة هذا الدين وما إنتهوا من معركة إلا وفكروا في تدبير المال لمعركة أخرى.

قال العلامة الألوسي – رحمه الله – المراد من الأول – أي قوله [**يُنفِقونَ**] – الإنفاق في بدر ، ومن الثاني – أي فسينفقونها – الإنفاق في أحد . ا هـ[٢]

وذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله – عن مجاهد وغيره أن هذه الآية نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في غزوة أحد لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الضحاك أن الآية نزلت في بدر . ثم قال : وعلى كل تقدير فهى عامة وإن كان سبب نزولها خاصا فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم

---

(١) روح المعاني جـ٥ صـ١٨٨

(٢) روح المعاني جـ٥ صـ١٥١ بتصرف

تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيئًا لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله متم نوره ولو كره الكافرون وناصر دينه ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار .

فمن عاش منهم رأي بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي . اهـ[١]

والواقع يدل على ذلك فكم من حملات أتت وغارات هبت من أعداء الإسلام شرقًا وغربًا على المسلمين وما زاد الإسلام ذلك إلا قوة وتمكينا في قلوب المسلمين وغير المسلمين

(٢) إخماد الفتنة وإظهار الدين

قال تعالى **[وَقاتِلوهُم حَتّى لا تَكونَ فِتنَةٌ وَيَكونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلَّـهِ فَإِنِ انتَهَوا فَإِنَّ اللَّـهَ بِما يَعمَلونَ بَصيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوا فَاعلَموا أَنَّ اللَّـهَ مَولاكُم نِعمَ المَولى وَنِعمَ النَّصيرُ]**[٢]

في هاتين الآيتين يبين الحق سبحانه وتعالى سببًا آخر من أسباب قتال المشركين وهو قوله تعالى **[حَتّى لا تَكونَ فِتنَةٌ وَيَكونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلَّـهِ]** أي إن ظلت الغلبة للكفار فسوف يفتنون المؤمنين عن دينهم بالقتل والتعذيب ويرهبون كل من يفكر في الدخول في الإسلام ، وبذلك يطغي الكفر

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٠٧

(٢) سورة الأنفال الآيتان ٣٩ ، ٤٠

ويضمحل الإيمان ، ولذا كان الأمر بالقتال لاجتثاث شجرة الكفر وإحياء بذرة الإيمان.

ذكر الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – أن عروة بن الزبير – رضي الله عنهما – قال : كان المؤمنون في مبدأ الدعوة يفتنون عن دين الله ، فافتتن من المسلمين بعضهم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة ، وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة تآمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم ، فأصاب المؤمنين جهد شديد فهذا هو المراد من الفتنة فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة .

وذكر عن القاضي قوله : إنه تعالى أمر بقتالهم ثم بين العلة التي بها أوجب قتالهم فقال **[حَتّى لا تَكونَ فِتنَةٌ]** ويخلص الدين الذي هو دين الله من سائر الأديان وإنما يحصل هذا المقصود إذا زال الكفر بالكلية . اهـ[١]

إذن فالمقصود من قوله تعالى **[وَيَكونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلَّـهِ]** أي في جزيرة العرب التي كانت مهد رسالة الإسلام كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "لا يجتمع دينان في جزيرة العرب"[٢]

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله – قوله تعالى **[وَيَكونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلَّـهِ]** يعني أنه لا يجب أن يجتمع دينان في جزيرة العرب، قد حدث أما قوله

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٥ صـ١٣٤ ، ١٣٥ باختصار

(٢) الحديث رواه مالك في الموطأ باب فضائل المدينة ما جاء في إخلاء اليهود من المدينة .

[وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّـــهِ][١]في سورة البقرة فقد أعطتنا لقطة أخرى وهى أن الإسلام للعالم كله.اهـــ [٢]

ولا يفوتنا في هذا البحث أن نتعرض لما قاله الإمام القرطبي في تفسيره لآية البقرة [وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ] فقد استدل بها على مطلق القتال لعموم الكفار فقال : قوله تعالى [وَقَاتِلُوهُمْ] أمر بالقتال لكل مشرك في كل موضع على من رآها ناسخة – ومن رآها غير ناسخة قال : المعنى قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم [فَإِن قَاتَلُوكُمْ] والأول أظهر وهو أمر بقتال مطلق لا بشرط أن يبدأ الكفار دليل ذلك قوله تعالى [وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّـــهِ] وقال عليه السلام [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله[٣]] . فدلت الآية والحديث على أن سبب القتال هو الكفر لأنه قال [حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ] أي كفر فجعل الغاية عدم الكفر وهذا ظاهر . اهـــ [٤]

وما أيده وقال به الامام القرطبي فيه نظر فقوله تعالى في الآية الكريمة [حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ] يرد ما قاله حيث جعل الحق سبحانه وتعالى الغاية من القتال هى عدم الفتنة لا وجود الكفر ولو كان ذلك مراد الله لأتي به صراحة في آية محكمة لا تقبل التأويل . فكلمة الفتنة تحتمل أكثر من معنى وتفسيرها في هذه الآية بالكفر غير وجيه لأنه مخالف لنصوص القرآن فى قوله تعالى [وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـــهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّـــهَ لَا يُحِبُّ

(١) سورة البقرة من الآية
(٢) تفسير الشعراوي ط صـ ٤٧٥٢ بتصرف واختصار
(٣) الحديث أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب فضل استقبال القبلة رقم ٣٩٢ وأخرجه مسلم باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله .
(٤) تفسير القرطبي جـ٢ صـ٧٢٨

الْمُعْتَدِينَ][١] وقوله سبحانه **[وَقَاتِلُوا المُشرِكينَ كافَّةً كَما يُقاتِلونَكُم كافَّةً]**[٢] وغير ذلك من الآيات.

ثم إن الشطر الثاني من الآية يبين أنهم إن انتهوا – أي عن فتنة الناس وتركوهم وإيمانهم – فإن الله بما يعملون بصير وفي آية البقرة فإن انتهوا – أي عن القتال – **[فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ]**[٣] وغير ذلك من الآيات .

ثم هل انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ولم يبق على وجه الأرض كافر ؟ وهل جاء الصحابة رضوان الله عليهم من بعده وسلطوا السيوف على رقاب الناس ليدخلوهم في الإسلام؟ وإذا كانت الحجة في الفتوحات فلم يكن القتال فيها لإجبار الناس على الإسلام بل القتال لتحريرهم من الممالك التي استعبدت الناس ومن كهانهم الذين أرغموا الناس على دياناتهم طمعًا في أموالهم ثم ترك الفاتحون الناس بعد ذلك واختيارهم ليعبدوا ما يشاؤون انطلاقًا من قول الله تعالى [لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ][٤] – وقوله **[فَمَن شاءَ فَليُؤمِن وَمَن شاءَ فَليَكفُر]**[٥] – وقوله **[وَما أَكثَرُ النّاسِ وَلَو حَرَصتَ بِمُؤمِنينَ]**[٦] وقوله **[أَفَأَنتَ تُكرِهُ النّاسَ حَتّى يَكونوا مُؤمِنينَ]**[٧] وغير وغير ذلك من الآيات الكثيرة ،وكذلك ليس المراد من الناس فى قوله صلى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠ .
(٢) سورة التوبة من الآية ٣٦ .
(٣) سورة البقرة من الآية ١٩٣ .
(٤) سورة البقرة من الآية ٢٥٦ .
(٥) سورة الكهف من الآية ٢٩ .
(٦) سورة يوسف : الآية ١٠٣ .
(٧) سورة يونس : من الآية ٩٩ .

الله عليه وسلم (أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) كل الناس ولكن المراد من قاتلوا النبى صلى الله عليه وسلم فى بدر وأحد فكلمة الناس تطلق ويراد بها البعض كما قال تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)[١] أو المراد من الناس الذين عاصروا النبى صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن بلغتهم وشاهدوا الخوارق التى تدفعهم الى الايمان دفعاً وبالتالى لا عزر لهم فى الكفر وقد يحمل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب .اردنا أن نوضح ذلك حتى لا يتخذ المتشددون والمتنطعون من كلام الإمام القرطبى ذريعة لقتل الناس وحملهم كرها على الإسلام.

والله تعالى اعلى واعلم

[١]) سورة البقرة من الآية ١٧٣ .

٣- مكر الكافرين بالنبي صلى الله عليه وسلم واستهزاؤهم بالدين :

قال تعالى **[وَإِذ يَمكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَروا لِيُثبِتوكَ أَو يَقتُلوكَ أَو يُخرِجوكَ وَيَمكُرونَ وَيَمكُرُ اللَّـهُ وَاللَّـهُ خَيرُ الماكِرينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذا تُتلى عَلَيهِم آياتُنا قالوا قَد سَمِعنا لَو نَشاءُ لَقُلنا مِثلَ هـذا إِن هـذا إِلّا أَساطيرُ الأَوَّلينَ ﴿٣١﴾وَإِذ قالُوا اللَّـهُمَّ إِن كانَ هـذا هُوَ الحَقَّ مِن عِندِكَ فَأَمطِر عَلَينا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائتِنا بِعَذابٍ أَليمٍ]**[1]

هذه الآيات الكريمات تذكر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بجرائم المشركين قبل الهجرة من ذلك مكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم حينما تآمروا عليه صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وتشاورا في أمره بين القتل أو السجن أو النفي ثم أجمعوا على قتله وهموا بذلك فأنقذه الله من بين أيديهم وآواه إلى دار أمنة وإيمانه ورد الله مكرهم بما حدث لهم في بدر .

قال الإمام البيضاوي – رحمه الله – قوله تعالى **[وَيَمكُرُ اللَّـهُ]** برد مكرهم عليهم أو بمجازاتهم عليه أو بمعاملة الماكرين بمعاملتهم بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا . اهـ [2]

وقوله تعالى **[وَإِذا تُتلى عَلَيهِم آياتُنا قالوا قَد سَمِعنا لَو نَشاءُ لَقُلنا مِثلَ هـذا إِن هـذا إِلّا أَساطيرُ الأَوَّلينَ]** يذكّر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بجريمة أخرى من جرائم المشركين تستوجب العقاب وهى استهزاؤهم بالقرآن الكريم كلما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(1) سورة الأنفال الآيات ٣٠- ٣٢

(2) تفسير البيضاوي وحاشية زادة جـ٢ صـ٣٠٦

ذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله – عن سعيد بن جبير وغيره أن القائل **[لَو نَشاءُ لَقُلنا مِثلَ هـذا إِن هـذا إِلّا أَساطيرُ الأَوَّلينَ]** هو النضر بن الحارث فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه الله وهو يتلوا على الناس القرآن فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول بالله أينا أحسن قصصًا أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضرب رقبته صبرًا بين يديه ففعل ذلك والحمد لله . اهـ[١]

وقوله تعالى **[وَإِذ قالُوا اللَّـهُمَّ إِن كانَ هـذا هُوَ الحَقَّ مِن عِندِكَ فَأَمطِر عَلَينا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائتِنا بِعَذابٍ أَليمٍ]** يذكّر بحماقة هؤلاء الكفار واستهزائهم بالدين واستخفافهم بالعذاب حتى قالوا هذه المقالة التي تبين مدى العناد الذي ترسخ في قلوبهم حتى لكأنهم يؤثرون الموت على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهم يريدون بذلك إيهام الناس أن محمدًا على باطل بدليل دعائهم على أنفسهم بالهلاك إذ لو كان محمد على حق ما أقدموا على مثل ذلك .

ذكر الإمام القرطبي – رحمه الله – عن مجاهد وابن جبير أن قائل هذا هو النضر بن الحارث وعن أنس بن مالك : قائله أبو جهل . ثم يجوز أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٠٤

يقال : قالوه لشبهة كانت في صدورهم وعلى وجه العناد والإيهام على الناس أنهم على بصيرة ثم حل بهم يوم بدر ما سألوا . اهـ[١]

فكل ما ذكرته هذه الآيات كان تذكيرًا للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لإيقاظ همتهم وإثارة حفيظتهم وتحفيزًا لهم على قتال هؤلاء المجرمين .

(٤) بيان أن الحياة في الجهاد والهلكة في تركه :

قال تعالى : **[يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا استَجيبوا لِلَّـــهِ وَلِلرَّسولِ إِذا دَعاكُم لِما يُحييكُم وَاعلَموا أَنَّ اللَّـــهَ يَحولُ بَينَ المَرءِ وَقَلبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقوا فِتنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَموا مِنكُم خاصَّةً وَاعلَموا أَنَّ اللَّـــهَ شَديدُ العِقابِ]**[٢]

ذكر الإمام الفخر الرزاي – رحمه الله – في المراد من قوله تعالى **[إِذا دَعاكُم لِما يُحييكُم]** عدة وجوه : الأول : قاله السدي : هو الإيمان والإسلام وفيه الحياة لأن الإيمان حياة القلب والكفر موته – الثاني : قاله قتادة : القرآن أي أجيبوا إلى ما في القرآن ففيه الحياة والنجاة والعصمة . الثالث : قاله الأكثرون : هو الجهاد وسبب تسمية الجهاد بالحياة أمران . أحدهما : هو أن وهن أحد العدوين حياة للعدو الثاني فأمر المؤمنين إنما يقوي ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار . ثانيهما : أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهى توجب الحياة الدائمة قال تعالى [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـــهِ أَمْوَاتًا بَلْ

---

(١) تفسير القرطبي جـ٥ صـ٢٨٣٤

(٢) سورة الأنفال الآيتان ٢٤ ، ٢٥

أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ][١] الوجه الرابع **[لِما يُحييكُم]** أي لكل حق وصواب وعلى هذا التقدير فيدخل فيه القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة . اهـ[٢]

والحق أن كل ما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم هو دعوة للحياة الكريمة فالوحي الذي جاء به هو الروح التي تحيا بها القلوب وتسلم بها الأبدان ولكن إذا كنا بصدد حديث السورة عن غزوة بدر يجعلنا نعضد الوجه الذي يقول إن المراد بقوله تعالى **[إِذا دَعاكُم لِما يُحييكُم]** هو الجهاد . فلو تخاذل الناس عن مقاتلة العدو لاحتل الأرض وهتك العرض وقتل الرجال وسبي النساء وشرد الأطفال ونهب الأموال وأضاع الدين وعطل الشعائر ونسف التراث وأي حياة تكون بعد ذلك ولذا جعل القرآن الكريم الهلكة في التقاعس عن بذل المال للجهاد قال تعالى [وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ][٣] فكيف إذا بخل الناس بالمال والنفس ،

وقوله تعالى **[وَاعلَموا أَنَّ اللَّـهَ يَحولُ بَينَ المَرءِ وَقَلبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرونَ]** فيه تطمين للمؤمنين المقبلين على الجهاد بأن الله معهم وهو مقلب قلوبهم سيحولها من الضعف إلى القوة ومن الخوف إلى الأمن وإذا قتلتم فستحشرون إليه فيجازيكم على أعمالكم أفضل جزاء .

قال العلامة الألوسي – رحمه الله – إن القوم لما دعوا إلى القتال والجهاد وكانوا في غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضاقت صدورهم فقيل لهم :

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ١٢١ ، ١٢٢ بتصرف
(٣) سورة البقرة : من الآية ١٩٥ .

قاتلوا في سبيل الله تعالى إذا دعيتم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمنا والجبن جرأة .

[وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرونَ] لا إلى غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم التي لم يَخفَ عليه شئ منها فسارعوا إلى طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وبالغوا في الاستجابة . اهـ[١]

وقوله تعالى **[وَاتَّقوا فِتنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَموا مِنكُم خاصَّةً وَاعلَموا أَنَّ اللَّـهَ شَديدُ العِقابِ]** فيه تحذير من ترك الجهاد وافتراق الكلمة وشق الصف وفساد ذات البين فإنها الحالقة ولو حدث ذلك لعم البلاء ولهلك الصالح والطالح والمحسن والمسئ .

قال الشيخ الجمل – رحمه الله – قوله تعالى **[وَاتَّقوا فِتنَةً]** أي اتقوا ذنبًا يعمكم أثره كإقرار المنكر بين أظهركم والمداهنة في الأمر بالمعروف وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل عن الجهاد . وذكر عن ابن زيد قوله: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضًا . اهـ[٢]

إذ الاختلاف يفتح على الأمة باب شر لا يوصد وفتنة لا تخمد ونار تلتهم الأخضر واليابس ، وبذلك تفنى الحياة بالموت أو حياة بلا كرامة بالهزيمة .

---

(١) روح المعاني جـ٥ صـ١٧٩

(٢) حاشية الجمل جـ٢ صـ٢٣٨ بتصرف

المبحث الثالث / عوامل النصر ، ويتمثل في مطلبين :

المطلب الأول : التمسك بوصايا الله للمقاتلين :-

ذكرت سورة الأنفال العديد من الوصايا للمؤمنين المقبلين على الجهاد من هذه الوصايا ما يلي :

الوصية الأولى / الثبات وذكر الله عند لقاء العدو :

قال تعالى **[يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِذا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفَروا زَحفًا فَلا تُوَلّوهُمُ الأَدبارَ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِم يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إِلّا مُتَحَرِّفًا لِقِتالٍ أَو مُتَحَيِّزًا إِلى فِئَةٍ فَقَد باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّـهِ وَمَأواهُ جَهَنَّمُ وَبِئسَ المَصيرُ]**[1]

وقال سبحانه **[يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِذا لَقيتُم فِئَةً فَاثبُتوا وَاذكُرُوا اللَّـهَ كَثيرًا لَعَلَّكُم تُفلِحونَ]**[2]

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال سبحانه **[يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِذا لَقيتُم فِئَةً فَاثبُتوا]** . وذكر عبد الرازق بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإن لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله فإن صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت] . اهـ [3]

---

(1) سورة الأنفال الآيتان ١٥ ، ١٦

(2) سورة الآنفال الآية ٤٥

(3) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣١٦ والحديث أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب لا تتمنوا لقاء العدو رقم ٢٨٦١ .

فوصية الله ورسوله للمجاهدين الثبات عند لقاء الأعداء مهما كانت قوتهم كما قال تعالى **[إِذا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفَروا زَحفًا]** فالزحف (يسمى به الجيش الدهم) [١] فعليهم أن يواجهوا الكفار وينازلوهم ولا يولوهم الأدبار فلا يليق بالمؤمنين المنتسبين إلى الله أن يفروا أمام عدوهم ويعطوهم ظهورهم ولذا جاء التعبير عن الفرار بلفظ مستهجن **[فَلا تُوَلّوهُمُ الأَدبارَ]** وذلك لاستقباحه والتنفير منه كما قال الشيخ الجمل – رحمه الله – هذا من باب التعريض حيث ذكر لهم حالة تستهجن من فاعلها فأتى بلفظ الدبر دون الظهر . اهـ[٢]

واستثنت الآية الكريمة الفرار المشروع في قوله تعالى **[إِلّا مُتَحَرِّفًا لِقِتالٍ أَو مُتَحَيِّزًا إِلى فِئَةٍ]** أي يجوز الفرار إذا كان عدد الكفار أكثر من ضعف عدد المؤمنين أو الفرار من أجل الكر أو التحيز لجماعة المؤمنين .

قال الإمام البيضاوي – رحمه الله – قوله تعالى **[إِلّا مُتَحَرِّفًا لِقِتالٍ]** يريد الكر بعد الفر وتغرير العدو فإنه من مكائد الحرب **[أَو مُتَحَيِّزًا إِلى فِئَةٍ]** أو منحازًا إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم ، ومنهم من لم يعتبر القرب لما روى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أنه كان في سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا إلى المدينة فقلت : يارسول الله نحن الفرارون قال : بل أنتم العكارون وأنا فئتكم . اهـ[٣]

---

(١) روح المعاني جـ٥ صـ١٦٨

(٢) حاشية الجمل جـ٢ صـ٢٣٤

(٣) تفسير البيضاوي حاشية زاده جـ٢ صـ٣٠١ والحديث فى سنن الترميذى – كتاب الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء فى الفرار من الزحف رقم ١٧١٦ .

أما من فر بلا عذر [**فَقَد باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّـــهِ وَمَأواهُ جَهَنَّمُ وَبِئسَ المَصيرُ**] أي إن رجع إلى أهله فقد رجع محملاً بغضب من الله وخزي وعار في الدنيا وإن مات ولم يتب فمأواه جهنم وبئس المصير لأنه ارتكب كبيرة من أكبر الكبائر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم [اجتنبوا السبع الموبيقات ومنها التولي يوم الزحف][١]

وتشير الآية الثانية إلى وصية أخرى مع الثبات وهى ذكر الله عز وجل كما قال سبحانه [**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِذا لَقيتُم فِئَةً فَاثبُتوا وَاذكُرُوا اللَّـــهَ كَثيرًا لَعَلَّكُم تُفلِحونَ**]

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله – طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يتذكروا دائمًا أنهم ليسوا وحدهم في المعركة وأنه سبحانه وتعالى معهم فليذكروا هذا كثيرًا ليوالي نصرهم على عدوهم لأنهم ما داموا على ذكر الله تعالى فسيقوى هذا الذكر إيمانهم ويجعل في قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر . اهـ[٢]

فالمقاتلون إذا ذكروا الله تعالى استشعروا بمعيته وأنهم موصولون به وإذا كانوا كذلك فلن تقدر عليهم أي قوة مهما كانت ولو اجتمع عليهم ما بين أقطار الأرض .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري كتاب الحدود باب رمي المحصنات رقم ٩٤٦٥ .
(٢) تفسير الشعراوي جـ٨ صـ٤٧٢٢

الوصية الثانية : الطاعة وتجنب النزاع والتحلي بالصبر :-

قال تعالى **[وَأَطيعُوا اللَّـــهَ وَرَسولَهُ وَلا تَنازَعوا فَتَفشَلوا وَتَذهَبَ ريحُكُم وَاصبِروا إِنَّ اللَّـــهَ مَعَ الصّابِرينَ]** (١)

بعد ما بينت السورة الكريمة في الآية السابقة وصية الله للمجاهدين بالثبات عند لقاء العدو وذكر الله عند مواجهته فقال سبحانه **[يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِذا لَقيتُم فِئَةً فَاثبُتوا وَاذكُرُوا اللَّـــهَ كَثيرًا لَعَلَّكُم تُفلِحونَ]** تبين في هذه الآية وصية أخرى وهى طاعة الله ورسوله وتجنب النزاع وشق الصف لما يؤول إليه من الهزيمة وضياع الأمة .

قال صاحب الظلال – رحمه الله – أمر بطاعة الله ورسوله كي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة **[وَلا تَنازَعوا فَتَفشَلوا وَتَذهَبَ ريحُكُم]** فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم مهما اختلفت وجهات النظر ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة ، إنه من عمليات الضبط التي لابد منها في المعركة إنها طاعة القيادة العليا التي تنبثق من طاعة الأمير الذي يقودها .اهـ(٢)

فطاعة ولي الأمر واجبة في المعروف وهى من طاعة الله ورسوله قال تعالى **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّـــهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ**

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٦

(٢) في ظلال القرآن جـ٣ ص ١٥٢٨ ، ١٥٢٩ بتصرف .

فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّـهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا][١]

وقال صلى الله عليه وسلم : "اسمعوا واطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة"[٢]

فطاعة القائد فيها وحدة الصف ووحدة الوجهة وبها يصير المسلمون كالجسد الواحد أما العصيان والنزاع والشقاق فيفضي إلى الفرقة واختلاف الكلمة ومن ثم الفشل وضياع الأمة كما قال تعالى **[وَلا تَنازَعوا فَتَفشَلوا وَتَذهَبَ ريحُكُم]** .

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – بين تعالى أن النزاع يوجب أمرين : أحدهما : أنه يوجب حصول الفشل والضعف . والثاني : قوله **[تَذهَبَ ريحُكُم]** وفيه قولان . الأول : المراد بالريح الدولة شبهت الدولة وقت نفاذها وتمشية أمرها بالريح وهبوبها . يقال : هبت رياح فلان إذا دانت له الدولة ونفذ أمره . الثاني : أنه لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله . وفي الحديث [نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور][٣] وذكر عن مجاهد قوله **[تَذهَبَ ريحُكُم]** أي نصرتكم وذهبت ريح محمد حين تنازعوا يوم أحد .اهـ[٤]

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري كتاب الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية رقم ٦٧٢٣ .

٣) الجديث أخرجة البخارى كتاب الاستسقاء باب قول النبى صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا حديث رقم ٩٨٨ .

(٤) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ١٤١باختصار

وقوله تعالى **[وَاصبِروا إِنَّ اللَّـــهَ مَعَ الصّابِرينَ]** يبين وصية أخرى للمجاهدين وهى الصبر حين البأس كما قال تعالى [وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ][١] فالصبر وطول النفس في الحرب هو الذي يفرز الرجال ويمحص المؤمنين ويميز الغث من السمين . كما قال تعالى **[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ]**[٢]

وكما قال سبحانه [أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّـــهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ][٣]

ولذا حث القرآن الكريم المجاهدين في كثير من آياته على الصبر فقال تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّـــهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ][٤]

وقال سبحانه **[إِن يَكُن مِنكُم عِشرونَ صابِرونَ يَغلِبوا مِائَتَينِ]**[٥]

وكان من دعاء سحرة فرعون : **[رَبَّنا أَفرِغ عَلَينا صَبرًا وَتَوَفَّنا مُسلِمينَ]**[٦]

ومن دعاء طالوت وجنوده : [رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ][٧] وغير ذلك من الآيات وكان من وصايا النبي

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٧٧ .
(٢) سورة محمد : الآية ٣١ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤٢ .
(٤) سورة آل عمران : الآية ٢٠٠ .
(٥) سورة الأنفال من الآية ٦٥ .
(٦) سورة الأعراف : من الآية ١٢٦ .
(٧) سورة البقرة : من الآية ٢٥٠ .

النبي صلى الله عليه وسلم للمجاهدين الصبر فقد ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال (يا أيها الناس لا تتمنوا القاء العدو واسالوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قام النبى صلى الله عليه وسلم وقال اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم[١] وكما قال صلى الله عليه وسلم [وأن النصر مع الصبر][٢] فالصبر هو طريق النصر وأهم أدواته لأن الله مع الصابرين ، كما جاء في الآية التي نحن بصددها **[وَاصبِروا إِنَّ اللَّـــهَ مَعَ الصّابِرِينَ]** ومن كان الله معه فلا يخاف فهو في حماه ولا يقدر أحد على أذاه .

الوصية الثالثة : تقوى الله عز وجل :-

قال تعالى **[يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِن تَتَّقُوا اللَّـــهَ يَجعَل لَكُم فُرقانًا وَيُكَفِّر عَنكُم سَيِّئَاتِكُم وَيَغفِر لَكُم وَاللَّـــهُ ذُو الفَضلِ العَظيمِ]**[٣]

هذه الآية الكريمة تبرز لنا وصية جليلة للمؤمين وخاصة المقبلين على الجهاد في سبيل الله وهى تقوى الله عز وجل حتى تزول العقبات وتمحى الشبهات لينجلي الحق ويندحر الباطل .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب لا تتمنوا لقاء العدو رقم ٢٨٦١ .
(٢) الحديث جامع العلوم والحكم الحديث رقم ١٩ وأخرجه الترمذي حديث رقم ٢٥١٦ وقال حديث حسن .
(٣) سورة الآنفال الآية ٢٩

ذكر العلامة الألوسي – رحمه الله – عن الفراء قال: قوله تعالى **[إِن تَتَّقُوا اللَّـــهَ يَجعَل لَكُم فُرقانًا]** أي نصراً يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين . اهـــ[١]

وتقوى الله في كل شئ مآلها الصلاح وعاقبتها الخير فبها ينفك الكرب ويتسع الرزق كما قال تعالى **[وَمَن يَتَّق اللَّـــهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ]**[٢] وبها ييسر الأمر قال تعالى **[وَمَن يَتَّق اللَّـــهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا]**[٣] وبها ينال العلم . قال تعالى [وَاتَّقُوا اللَّـــهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّـــهُ][٤]

والوصية للمجاهدين بتقوى الله بمعنى مراقبته تعالى فى الحرب فلا يدخرون جهدًا ولا يتسلل الوهن إلى قلوبهم وليثقوا في وعد الله لهم بالنصر .

فإذا كانوا كذلك جعل الله لهم فرقانًا وفتح بينهم وبين عدوهم بالحق كما قال سبحانه **[إِن تَتَّقُوا اللَّـــهَ يَجعَل لَكُم فُرقانًا]** وقد حدث ذلك يوم بدر أظهر الله تعالى فيه الحق وأبطل الباطل وسمي ذلك اليوم بيوم الفرقان كما قال الله تعالى **[إِن كُنتُم آمَنتُم بِاللَّـــهِ وَما أَنزَلنا عَلى عَبدِنا يَومَ الفُرقانِ يَومَ التَقَى الجَمعانِ وَاللَّـــهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ]**[٥]

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – عند تفسيره لهذه الآية : ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق بين الحق والباطل ببدر ويسمى بيوم

---

(١) روح المعاني جـ٥ صـ١٨٤
(٢) سورة الطلاق الآيتان ٢،٣
(٣) سورة الطلاق الآية ٤
(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٢
(٥) سورة الأنفال الآية ٤١

الفرقان لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه . اهـ[١]

فتقوى الله هى زاد المؤمنين بها ينصلح دينهم الذي هو عصمة أمرهم ودنياهم التي فيها معاشهم وآخرتهم التي إليها معادهم

وقوله تعالى **[وَيُكَفِّر عَنكُم سَيِّئَاتِكُم وَيَغفِر لَكُم وَاللَّـهُ ذُو الفَضلِ العَظيمِ]** يبين ما وعد الله به المجاهدين المتقين من ستر العيوب ومغفرة الذنوب والفضل العظيم في الدنيا والآخرة .

الوصية الرابعة : عدم الخيانة :- [٢]

قال تعالى **[يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا لا تَخونُوا اللَّـهَ وَالرَّسولَ وَتَخونوا أَماناتِكُم وَأَنتُم تَعلَمونَ﴿٢٧﴾ وَاعلَموا أَنَّما أَموالُكُم وَأَولادُكُم فِتنَةٌ وَأَنَّ اللَّـهَ عِندَهُ أَجرٌ عَظيمٌ]**[٣]

ذكر الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – عدة روايات في سبب نزول هاتين الآيتين منها ما رواه عن ابن عباس ، نزلت في أبي لبابة حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظه لمًا حاصرهم وكان أهله وولده فيهم فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى لنا أننزل على حكم سعد بن معاذ فينا؟ فأشار إلى حلقة أي الذبح فلا تفعلوا فكان ذلك منه خيانة لله ورسوله .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٧١٧

(٢) الخيانة : الغدر وإخفاء الشئ – القرطبي جـ٥ صـ٢٨٣١ وفي المعجم الوجيز خان الشئ خونا وخيانة ومخانة – نقصه . والأمانة : لم يؤدها . وفلانًا غدر به . والنصحية لم يخلص فيها .. اهـ ص٢١٥

(٣) سورة الآنفال الآيتان ٢٧ ، ٢٨

وعن الزهري والكلبي : نزلت في حاطب ابن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة لما هم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج إليها .

وعن جابر بن عبد الله : أن أبا سفيان خرج من مكة فعلم النبي صلى الله عليه وسلم خروجه وعزم على الذهاب إليه فكتب إليه رجل من المنافقين إن محمدًا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله هذه الآية . اهـ[١]

وما ذكره الإمام الفخر الرازي من روايات في أسباب النزول يشمل ما حدث في غزوة بدر وما بعدها والأولى أن الآية عامة تحذر المؤمنين من الخيانة في أي عمل من أعمال الدنيا والآخرة ، ووصية الله للمجاهدين بعدم الخيانة معناه ألا يفشوا سرًا ولا يخالفوا أمرًا ولا يتخاذلوا في قتال ولا يغلوا في غنيمة .

وقوله تعالى **[وَتَخونوا أَماناتِكُم وَأَنتُم تَعلَمونَ]** يبين الطامة الكبرى إذا ما كانت الخيانة عن عمد وليست سهوًا أو نسيانًا بل عن علم بالذنب واستخفاف بالعقوبة .

قال العلامة الألوسى – رحمه الله – قوله تعالى **[وَأَنتُم تَعلَمونَ]** أي تبعة ذلك ووباله ، أو أنكم تخونون وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.اهـ[٢]

وقوله تعالى **[وَاعلَموا أَنَّما أَموالُكُم وَأَولادُكُم فِتنَةٌ]** يبين سبب الخيانة والدافع إليها وهو الحرص على الأموال والخوف على العيال .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ١٢٥

(٢) روح المعاني جـ٥ صـ١٨٣

قال الإمام البيضاوي – رحمه الله – ذكرهم – أي الأموال والأولاد – لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب أو منحة من الله ليبلوكم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة . اهـ[١]

وقوله تعالى **[وَأَنَّ اللَّـــهَ عِندَهُ أَجرٌ عَظيمٌ]** يرغب فيما عند الله من ثواب فهو خير من الأموال والأولاد .

قال الإمام الحافظ ابن كثير – رحمه الله – أي ثوابه وحنانه خير لكم من الأموال والأولاد فإنه قد يوجد منهم عدو وأكثرهم لا يغني عنك شيئًا والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . اهـ[٢]

فثواب الله باق ونعم الدنيا زائلة والشقي من يؤثر الفاني على الباقي .

الوصية الخامسة : عدم الغرور :-

قال تعالى [﴿٤٦﴾ **وَلا تَكونوا كَالَّذينَ خَرَجوا مِن دِيارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النّاسِ وَيَصُدّونَ عَن سَبيلِ اللَّـــهِ وَاللَّـــهُ بِما يَعمَلونَ مُحيطٌ**][٣]

تعرضنا سابقًا لهذه الآية الكريمة عند الحديث عن بيان السورة الكريمة لحالة الكبر والغرور والفخر والرياء التي خرج عليها المشركون من مكة لقتال محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم .

وهنا نشير إلى وصية الله للمؤمنين المجاهدين ألا يكونوا مثلهم فيغتروا بعددهم وعتادهم حتى لا يصبهم ما أصابهم .

---

(١) تفسير البيضاوي – حاشية زاده جـ٢ صـ٣٠٥

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٠١

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٧

قال الإمام البيضاوي – رحمه الله – نهى الله المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين ، وأمرهم بأن يكونوا أهل التقوى والإخلاص من حيث إن النهي عن الشئ أمر بضده . اهـ[١]

وقال صاحب الظلال – رحمه الله – هذا التعليم ليحمي العصبة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعجب بقوتها وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها الله لها في غير ما أرادها ، تخرج للقتال في سبيل الله لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر ، تخرج لحماية حرمات الناس وكرامتهم وحرياتهم لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم .

ولقد كانت صورة الخروج بطرًا ورئاء الناس وصدًا عن سبيل الله حاضرة أمام هذه العصبة المسلمة يرونها في خروج قريش بالصورة التي خرجت في ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد الله ورسوله وعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة . اهـ[٢]

وفي ذلك درس للمؤمنين وتحذير لهم من مماثلة هؤلاء المشركين في بطرهم وكبرهم فالكبر عاقبته وخيمة ولن يفلت المتكبرون من يد الله فهم في قبضته وتحت سلطانه لذا ذيلت الآية الكريمة بقوله تعالى **[وَاللَّـــهُ بِما يَعمَلونَ مُحيطٌ]** فهو محيط بهم إحاطة علم فيرصد عليهم أعمالهم ، ومحيط بهم إحاطة قدرة فسيجازيهم عليها ، وسنة الله لا تتخلف والمتكبر سينال عقابه مهما كان ولا محاباة لأحد عند الله ويوم أن اغتر المسلمون في حنين حلت بهم الهزيمة

---

(١) تفسير البيضاوي حاشية زاده جـ٢ صـ٣١٠

(٢)في ظلال القرآن جـ٣ صـ١٥٢٩ ، ١٥٣٠ بتصرف

في الجولة الأولى[١] ، ويوم حرنت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة قال صلى الله وعليه وسلم [حبسها حابس الفيل] [٢] فدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة حانيًا ظهره مطأطأ رأسه يخشى البطر والغرور .

فلا يليق بجيش المسلمين الذي يرفع لواء الإسلام لينشر القيم والعدل أن يكون كجيش الطغاة المتكبرين الذين يبتغون نهب البلاد وظلم العباد .

المطلب الثاني / معونة الله للمؤمنين :-

إن معركة بدر تعد أول لقاء بين المؤمين والكافرين وكان ذلك بترتيب الله عز وجل لينصر دينه ويعلي كلمته رغم قلة المؤمنين في العدد والعُدد ، وظهر في هذه الغزوة تأييد الله للمؤمنين ومعونته للمجاهدين وقد بينت سورة الأنفال هذا التأييد وهذه المعونة وذلك واضح فيما يلي :

(١)نزول الملائكة

قال تعالى [**إِذ تَستَغيثونَ رَبَّكُم فَاستَجابَ لَكُم أَنّي مُمِدُّكُم بِأَلفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُردِفينَ ﴿٩﴾ وَما جَعَلَهُ اللَّـهُ إِلّا بُشرى وَلِتَطمَئِنَّ بِهِ قُلوبُكُم وَمَا النَّصرُ إِلّا مِن عِندِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ عَزيزٌ حَكيمٌ**][٣]

ذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله –عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله وعليه وسلم إلى أصحابه

---

(١) اقرأ قول الله تعالى [**لَقَد نَصَرَكُمُ اللَّـهُ في مَواطِنَ كَثيرَةٍ وَيَومَ حُنَينٍ إِذ أَعجَبَتكُم كَثرَتُكُم فَلَم تُغنِ عَنكُم شَيئًا وَضاقَت عَلَيكُمُ الأَرضُ بِما رَحُبَت ثُمَّ وَلَّيتُم مُدبِرينَ**] الآية

(٢) الحديث أخرجه البخاري كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب رقم ٢٥٨٣ .

(٣) سورة الآنفال الآيتان ٩ ، ١٠

وهم ثلثمائه ونيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة وعليه رداؤه وازاره ثم قال [اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا] قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر رضى الله عنه – فأخذ رداءه فرده ثم التزمه من ورائه ثم قال : يانبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجزلك ما وعدك فأنزل الله عز وجل [**إِذ تَستَغيثونَ رَبَّكُم فَاستَجابَ لَكُم أَنّي مُمِدُّكُم بِأَلفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُردِفينَ**] أي يردف بعضهم بعضًا[١]

وذكر عن على – كرم الله وجهه – قال : نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي صلى عليه وسلم وفيها أبو بكر ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة . اهـ[٢]

وهذا يدل على أن الملائكة نزلوا يوم بدر وأن هذه المعركة لم يشهدها المؤمنون من أهل الأرض فحسب بل شهدها أهل السماء من الملائكة وامتد جيش المسلمين إلى الملأ الأعلى ومن ورائهم قوة الله ترعاهم وتحميهم .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٧٦٣ كتاب الجهاد ولسير باب الإعداد بالملائكة في غزوة بدر والترمذي رقم ٣٠٨١ كتاب التفسير باب ومن سورة الأنفال من حديث عمر بن الخطاب

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٨٩ ، ٢٩٠ بتصرف والحديث فى مستدرك الحاكم كتاب معرفة الصحابة رضى الله عنهم باب نزول جبريل وميكائيل واسرافيل فى غزوة بدر رقم ١٧٤١ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

ذكر الإمام البخاري بسنده عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم . قال [من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها] قال وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة[١]

والآية الكريمة تثبت أن عددهم كان ألفًا مردفين بغيرهم حتى وصلوا إلى خمسة آلاف كما جاء في سورة آل عمران [بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ][٢]

وذكر الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – اختلاف العلماء في مباشرة الملائكة للقتال في بدر فقال : اختلفوا في أن الملائكة هل قاتلوا يوم بدر؟ فقال قوم نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر ، وميكائيل في خسمائة على الميسرة وفيها على بن أبي طالب في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وقاتلوا . وقيل : قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين . وروى أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر إلى المشرك وقد خر مستلقيًا وقد شق وجهه فحدث الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صدقت ذاك من مدد السماء[٣].

---

(١) أخرجه البخارى كتاب المغازى باب شهود الملائكة بدار رقم ٣٧٧١ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٢٥ .
(٣) أخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم حديث رقم ١٧٦٣ .

وقال آخرون : لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين وإلا فملك واحد كافي في إهلاك الدنيا كلها فإن جبريل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة ، والذي يدل على صحة أن الملائكة ما نزلوا للقتال قوله تعالى **[وَما جَعَلَهُ اللَّــهُ إِلّا بُشرى]** وهذا أولى لأن الإمداد بالملائكة حصل للبشرى . اهـ[١]

ويؤيد هذا القول الأخير أن قوله تعالى **[وَما جَعَلَهُ اللَّــهُ إِلّا بُشرى]** جاء في سورة آل عمران وسورة الأنفال بصيغة القصر ليفيد أن مهمة الملائكة لم تكن إلا للبشارة وتطمين القلوب كما جاء في آية أخرى في سورة الأنفال **[إِذ يوحي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنّي مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذينَ آمَنوا]**[٢] أي طمئنوا الذين آمنوا وبشروهم بالنصر حتى تثبت أقدامهم ولا ترتعد فرائسهم ولو كان نزول الملائكة للقتال فما كان دور المجاهدين في بدر حينئذ وقد أثنى الله عليهم كثيرًا ، ومانوع الشدة التي تعرضوا لها حتى غفر الله لهم ما تقدم من وكذلك ذنوبهم وما تأخر وإذا كان الأمر كذلك فلم الدعوة لإعداد القوة طالما أن الأمر في يد الملائكة؟ فبإشارة واحدة تهلك الملائكة جميع أعداء المسلمين كما حدث للأمم السابقة .

إذن الأولى هو الاعتقاد أن نزول الملائكة إنما هو للبشارة وتثبيت المجاهدين ولا يجب الاعتماد على نزول الملائكة في المعارك أو الركون إلى

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ١٠٧ ، ١٠٨ بتصرف
(٢) سورة الأنفال الآية ١٢

ذلك ، بل يجب على المؤمنين استفراغ الوسع في إعداد القوة وبذل الجهد في الحصول على أسباب النصر ثم يقرر الله لهم بعد ذلك ما يستحقون

(٢)إلقاء النوم ونزول المطر

قال تعالى [**إِذ يُغَشّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيكُم مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذهِبَ عَنكُم رِجزَ الشَّيطانِ وَلِيَربِطَ عَلى قُلوبِكُم وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقدامَ**][1]

هذه الآية تبين لطف الله بالمؤمنين يوم بدر إذ حولهم من حالة الخوف والفزع إلى حالة الطمأنينة والأمن وذلك بإلقاء النوم عليهم ليزول اضطرابهم وتقر عيونهم كما قال تعالى [**إِذ يُغَشّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنهُ**]

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – يذكرهم الله تعالى بما أنعم عليهم من إلقاء النعاس عليهم أمانًا أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، وذكر عن على كرم الله وجهه – قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح، والآية الشريفة في سياق قصة بدر وهى دالة على وقوع ذلك للمؤمنين عند شدة اليأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم . اهـ[2]

قال الشيخ الجمل – رحمه الله – والفائدة في كون النعاس أمنة في القتال أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد

---

[1]) سورة الأنفال الآية ١١

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٩٢ بتصرف .

دليلاً على الأمن وإزالة الخوف . وقيل : إنهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعطشو عطشًا شديدًا ألقي الله عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الظمأ والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم فكان ذلك النوم نعمة في حقهم لأنه كان خفيفًا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله إليهم وقدروا على دفعة عنهم . وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله أن وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم ، وحصول النعاس لهذا الجمع الكثير مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة فلهذا السبب قيل إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لأنه أمر خارق للعادة . اهـ[1]

والآية الكريمة تبين نعمة أخرى من نعم الله على المؤمنين يوم بدر وهى نزول المطر عليهم ليطهرهم من دنسهم ويلبد الأرض تحت أقدامهم ليسد الطريق على الشيطان فلا يتسلل إلى قلوبهم . قال تعالى **[وَيُنَزِّلُ عَلَيكُم مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذهِبَ عَنكُم رِجزَ الشَّيطانِ وَلِيَربِطَ عَلى قُلوبِكُم وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقدامَ]**

ذكر العلامة الألوسي – رحمه الله – عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء فظمئ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين وكانت بينهم رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال : أتزعمون أن فيكم نبيًا وأنكم أولياء الله تعالى وتصلون مجنبين

([1]) حاشية الجمل جـ٢ صـ٢٩١

محدثين؟ فأنزل الله تعالى من السماء ماء فسال عليهم الوادي فشربوا وتطهروا وثبتت أقدامهم وذهبت وسوسة الشيطان . اهـ[١]

والمطر الذي ثبت أقدام المؤمنين هو الذي أعاق حركة الكافرين .

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – روى أنه لما نزل المطر حصل للكافرين ضد ما حصل للمؤمنين وذلك لأن الموضع الذي نزل الكفار فيه كان موضع التراب والوحل فلما نزل المطر عظم الوحل فصار ذلك مانعًا لهم من المشي كيفما أرادوا . فقوله **[وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقدامَ]** يدل دلالة المفهوم أن حال الأعداء كانت بخلاف ذلك . اهـ[٢]

وهذا من سنن الله في خلقه ينصر المؤمنين ويهلك الكافرين بالشئ الواحد كما حدث لموسى عليه السلام وفرعون عليه من الله ما يستحق بضربة واحدة للبحر نجى الله موسى ومن معه وأهلك فرعون وقومه وكذلك يوم بدر بنزول الماء من السماء نصر الله محمدًا وأصحابه وأهلك أبا جهل – فرعون هذه الأمة – وحزبه وفي ذلك عبرة لمن يعتبر .

---

(١) روح المعاني جـ٥ صـ١٦٥

(٢) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ١١١، ١١٢

٣- تثبيت المؤمنين وإرعاب الكافرين

قال تعالى **[إِذ يوحي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنّي مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذينَ آمَنوا سَأُلقي في قُلوبِ الَّذينَ كَفَرُوا الرُّعبَ فَاضرِبوا فَوقَ الأَعناقِ وَاضرِبوا مِنهُم كُلَّ بَنانٍ]**(١)

بعدما بين الحق سبحانه وتعالى في الآية السابقة بعض النعم على المؤمنين يوم بدر بإلقاء النوم عليهم وإنزال المطر إليهم ليثبت أقدامهم ويطهر أجسادهم ويربط على قلوبهم ويدفع عنهم وساوس الشيطان يبين هنا نعمة أخرى وهى ادخال الطمأنينة في قلوبهم لتقوى نفوسهم وتشتد عزائمهم .

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم – يعني المشركين – يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك فتقوى نفوسهم . اهـ(٢)

وقال الشيخ الجمل – رحمه الله – كان الملك يمشي في صفة رجل أمام الصف ويقول : أبشروا فإن الله ناصركم .اهـ(٣)

وفي مقابلة تثبيت قلوب المؤمنين يلقي الله عز وجل الرعب في قلوب الكافرين لتخور قوتهم وترتعد فرائسهم .

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – وهذا من النعم الجليلة وذلك لأن أمير النفس هو القلب فلما بين الله تعالى أنه ربط قلوب المؤمنين بمعنى أنه

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٢
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٩٢
(٣) حاشية الجمل جـ٢ صـ٢٣٢

قواها وأزال الخوف عنها ذكر أنه ألقى الرعب في قلوب الكافرين فكان ذلك من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين . [١]

وذلك لأن القلب إذا امتلأ بالرعب وهو عمدة الجسد مالت الأعناق وانهارت الأطراف وكانوا صيدًا سهلاً للمؤمنين ولذا أعقب الحق سبحانه وتعالى ذلك بقوله **[فَاضرِبوا فَوقَ الأَعناقِ وَاضرِبوا مِنهُم كُلَّ بَنانٍ]**

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – أي اضربوا إلهام ففلقوها واحتزوا الرقاب فقطعوها وقطعوا الأطراف منهم وهى أيديهم وأرجلهم . اهـ[٢]

والانتصار بالرعب خصوصية اختص الله بها نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث: أعطيت خمسًا لم يعطهن نبي قبلي ومنها نصرت بالرعب مسيرة شهر. [٣]

وهذه الخصوصية لا تزال في هذه الأمة ما دامت متمسكة بدين الله تعالى قائمة على شرعة مهتدية بهدى النبى صلى الله عليه وسلم سائرة على دربه والله نسأل النصر للمؤمنين .

٤- تقليل العدد في أعين الفريقين

قال تعالى **[إِذ يُرِيكَهُمُ اللَّـهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا وَلَو أَراكَهُم كَثِيرًا لَفَشِلتُم وَلَتَنازَعتُم فِي الأَمرِ وَلَـكِنَّ اللَّـهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذ**

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ١٢

(٢) تفسير بن كثير جـ٢ صـ٢٩٢ ، ٢٩٣

(٣) الحديث أخرجه البخاري رقم ٣٣٥ كتاب التيمم باب قوله تعالى **[فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا]** ومسلم رقم ٥٢١ والنسائي رقم ٤٣٢ كتاب الفشل والتيمم بالصعيد من حديث جابر

يُريكُموهُم إِذِ التَقَيتُم في أَعيُنِكُم قَليلًا وَيُقَلِّلُكُم في أَعيُنِهِم لِيَقضِيَ اللَّـــهُ أَمرًا كانَ مَفعولًا وَإِلَى اللَّـــهِ تُرجَعُ الأُمورُ](١)

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله : اعلم أن هذا من النعم التي أظهرها الله للمسلمين يوم بدر . اهـ(٢)

وذكر الإمام الألوسي – رحمه الله – اختلاف المفسرين في هذه الرؤية هل كانت يقظة أم منامًا ؟ فالجمهور على أنه صلى الله عليه وسلم أرى ما أرى في النوم وهو الظاهر المتبادر وحكمة إراءتهم إياه صلى الله عليه وسلم قليلين أن يخبر أصحابه – رضي الله عنهم – فيكون ذلك تثبيتًا لهم .

وعن الحسن أنه فسر المنام بالعين لأنها مكان النوم كما يقال للقطيفة المنامة لأنها ينام فيها فلم تكن عنده رؤيا أصلا بل كانت رؤية . اهـ(٣)

والحق أن الآية الأولى تشير إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ذلك منامًا فكانت رؤيا كما قال سبحانه **[إِذ يُريكَهُمُ اللَّـــهُ في مَنامِكَ]** فأخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه ثم تحققت هذه الرؤيا فأصبحت رؤية في اليقظة للمؤمنين كما قال سبحانه **[وَإِذ يُريكُموهُم إِذِ التَقَيتُم في أَعيُنِكُم قَليلًا]** قال ابن مسعود – رضي الله عنه – قلت لإنسان كان بجانبي يوم بدر أتراهم سبعين ؟ فقال هم نحو مائة . فأسرنا رجلاً فقلنا كم كنتم ؟ قال : كنا ألفًا . (٤)

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ٤٣ ، ٤٤
(٢) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ١٠٤
(٣) روح المعاني جـ٥ صـ٢٠٦
(٤) تفسير القرطبي جـ٥ صـ٢٨٦٢

وكذلك قلل الله عدد المؤمنين في أعين الكافرين كما قال تعالى **[وَيُقَلِّلُكُم فِي أَعيُنِهِم]** روى أن أبا جهل قال : إنما هم أكلة جزور خذوهم أخذًا واربطوهم بالحبال. (١)

وعن الحكمة من ذلك يقول الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – اعلم أنه تعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين وقلل أيضًا عدد المؤمنين في أعين المشركين والحكمة في التقليل الأول تصديق رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم وأيضًا لتقوى قلوبهم وتزداد جرأتهم عليهم . والحكمة من التقليل الثاني أن المشركين لما استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب والحذر فصار ذلك سببًا لاستيلاء المؤمنين عليهم . اهـ(٢)

وتقليل كل فريق في أعين الآخر كان قبل المواجهة ليقبل كل فريق على القتال وهو واثق بالنصر والإجهاز على الفريق الآخر . فلما التحم الفريقان وأمد الله المؤمنين بالملائكة رأي الكفار عدد المؤمنين مثليهم كما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران [قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّـهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ](٣)

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – إنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر وقلله في عينه ليطمع فيه وذلك عند المواجهة فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقى حزب الكفر يرى حزب الإيمان

(١) تفسير القرطبي جـ٥ صـ٢٨٦٢
(٢) مفاتيح الغيب جـ١٥٤ صـ١٤٠
(٣) سورة آل عمران الآية ١٣

ضعفيه كما قال تعالى [قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّـهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ] الآية – وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فإن كلا منهما حق وصدق ولله الحمد والمنة . اهـ[١]

وقوله تعالى **[وَلَو أَراكَهُم كَثيرًا لَفَشِلتُم وَلَتَنازَعتُم فِي الأَمرِ وَلـكِنَّ اللَّـهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ]** يبين لطف الله بالمؤمنين إذ لو رأوهم كثيرًا لجبنوا وخافوا وتفرقت كلمتهم .

قال الإمام الألوسي – رحمه الله – قوله تعالى **[وَلَو أَراكَهُم كَثيرًا لَفَشِلتُم]** أي لجبنتم وهبتم الإقدام – وجمع ضمير الخطاب في الجزاء مع إفراده في الشرط إشارة كما قيل إلى أن الجبن يعرض لهم لا له صلى الله عليه وسلم إن كان الخطاب للأصحاب فقط وإن كان للكل يكون من إسناد ما للأكثر للكل **[وَلَتَنازَعتُم فِي الأَمرِ]** أي أمر القتال وتفرقت أراؤكم في الثبات والفرار **[وَلـكِنَّ اللَّـهَ سَلَّمَ]** أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع . اهـ[٢]

والذي ينظر في أمر بدر يجده من بدايته إلى نهايته من تدبير الله عز وجل بداية من إخراج الله المؤمنين من المدينة وتحديد الزمان والمكان ومعونة الله للمؤمنين في القتال كل ذلك ليتم قضاءه وينفذ كلمته ويحقق وعده بنصر المؤمنين وها هو ذا النصر قد تحقق بفضل الله عز وجل وأصبح للمسلمين شوكة يابها القريب والبعيد

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣١٥

(٢) روح المعاني جـ٥ صـ٢٠٦

الخاتمة

أهم وصايا البحث

بعد هذه الرحلة المباركة حول غزوة بدر الكبرى وبالنظر إلى دوافعها وعوامل النصر فيها من خلال سورة الأنفال الكريمة نستطيع أن نخرج بهذه التوصيات :-

١- اليقين الجازم بأنه مهما تداعت الأمم الكافرة على دين الله عز وجل ومهما رصدت لإبطاله فإنهم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً وسيجعل الله تدميرهم في تدبيرهم وكيدهم في نحورهم .

٢- الاعتقاد بأن الخير كل الخير فيما اختاره الله لعباده وإن كان ظاهره المشقة فهو سبحانه يختار لعباده معالي الأشياء وهم يلهثون وراء سفاسف الأمور .

٣- يجب على الأمة أن تساند الأقليات من المسلمين المستضعفين في كل مكان وتبدي الاستعداد لنصرتهم حتى لا يكونوا عرضة للهلاك والتنكيل والفتنة في الدين .

٤- على الأمة أن تظهر الغَيْرة على دين الله وتتصدى بحسم لكل من يستهزيء بالإسلام ورسوله حتى تضع حدًّا لكل متطاول أو متهاون أو مدفوع .

٥- الجهاد بكل وسائله هو عز المسلمين ورفع كلمة الدين وما ضاعت هيبة المسلمين وقوتهم إلا حينما ركنوا إلى الدنيا وتركوا الجهاد وتنازلوا عن كثير من شرائع الإسلام إرضاء للكافرين .

٦- تقوى الله عز وجل ومراقبته تعالى في الأمور كلها هو الذي يحيي الأمة بعد موتها ويبنيها بعد هدمها فإذا راقب كل إنسان ربه فيما استودعه لنهضت هذه الأمة وانصلح أمر دينها ودنياها .

وفي ختام هذا البحث أسأل الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجه تعالى وأن يجزي كل من قرأه أو اطلع عليه خير الجزاء – وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

أهم المصادر

(١) القرآن الكريم .

(٢) تفسير الشعرواي للإمام محمد متولي الشعراوي ، الناشر : أخبار اليوم .

(٣) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير ، ط / مكتبة التراث الإسلامي .

(٤) التفسير الكبير [مفاتيح الغيب] للإمام فخر الدين الرازي ، ط المكتبة التوفيقية .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ، ط / الريان للتراث .

(٦) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي ، ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام شهاب الدين محمود الألوسي ، ط / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(٨) الروض الآنف في تفسير سيرة ابن هشام للإمام السهيلي ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع .

(٩) السيرة النبوية لابن هشام المعافري ، مكتبة الصفا .

(١٠) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان بن عمر العجلي الشهير بالجمل ، ط دار إحياء الكتب العربية – حلب .

(١١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، ط / دار الشروق .

(١٢) الكشاف للإمام الزمخشري .

(١٣) لسان العرب لابن منظور ، ط / دار صادر ، بيروت .

(١٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، ط/ دار الحديث – القاهرة .

(١٥) المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية الخاص بوزارة التربية والتعليم .

(١٦) المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرون ، ط/ دار المعرفة .